وعبر هذا الحوار يرسم الياس نخلة ، لوحة عن حياة الريف ، وعن معاناته كفلاح اصيل وسط هذا الريف . وتتمحور قصة حياته حول اربعة أمور :

ـ **الارض** حيث يبدأ حياته متعلقا بها الى ابعد الحدود . وينتهي بعد عمليات الابعاد الاجتماعية المستمرة، متعلقا برياح الهجرة والسفر والتهريب.

ـ **البحث عن العمل** هو مبرر وجود الياس نخلة ، وهو الذي يعطي حياته هذا البعد الرومانسي الغروي المغامر . فيتنقل في جميع الاعمال الممكنة.

ـ **المرأة** التي هي النقطة المفصلية في تجربته الانسانية . علاقته بها ، مباشرة وطريفة في آن . وهو يتعامل معها بنفس العقلية التي يتعامل فيها مع الاشجار .

ـ **الاشجار** التي تصير كائنات تتحرك . من اجلها يعيد الياس نخلة نسج علاقته بالقرية ، من اجلها يهرب ومن اجلها يعود .

هذه القضايا الاربع ، تعود لتظهر في شخصية منصور عبد السلام . لكنها تأخذ هنا طابعا تراجيديا . فهو ليس متعلقا بالارض ، الا بمقدار علاقته بالهزيمة التي شارك في صنعها عسكريا بوصفه مجندا . والعمل هو مأساة حياته . فالثقافة ليست وظيفية ، الا بمقدار ما تتخلى عن نفسها وتصبح مجرد أداة دعائية في خدمة السلطة ، والاصرار على معنى ما للثقافة يقذف بك خارج المجتمع . اما المرأة فهي المكان الذي تتكثف فيه غربته وشعوره باليأس الكامل . وهو حين يحاول مصالحة الواقع بالزواج التقليدي ، فان هذا الزواج يرفضه هو الاخر . اما شجرة منصور فهو مرزوق . شجرة وحيدة تلخص الانقطاع والاستمرار في آن معا . مرزوق المناضل الذي تغتاله يد السلطة ، يتحول الى طقس يومي يمارسه منصور عبد السلام في منفاه العملي مع بعثة الاثار الفرنسية .

في الملامح الاربعة لشخصيتي روايته ، نقطة مركزية يحاول منيف ان يطرحها . فمنذ رواية توفيق الحكيم « عصفور من الشرق » وموضوع العلاقة بالغرب ـ العدو والمثل في آن معا ـ تأخذ حجمها في الرواية العربية المعاصرة : العلاقة بالغرب هي نقطة التقاطع الصعبة والمعقدة التي تتكون ـ بها وضدها ـ ملامح الانتلجنسيا العربية وسط شعور متساوي بالغربة . الشخصيتان الرئيسيتان ، تعبران بنسبة واحدة ، عن عدم القدرة على الاندماج ، ـ البقاء خارج الاطر الاجتماعية القديمة ، والبقاء خارج اطار سلطة القمع الايديولوجي ـ فيبقى المثقف خارج حركة الواقع (بمعناها السياسي المباشر) ويبقى الانسان العادي خارج هذه الحركة (بمعنى خارج همومها اليومية) غارقا في عملية البحث عن لقمة الخبز وداخلا حلبة التحولات ـ التي لا تمسه الا لتؤكد وعيه الشعبي الحاد بالمسألة التي يطرحها ـ . من يبقى داخل الاطر بعد ان تقطع الاشجار ويموت مرزوق ؟ يبقى الضباط والتجار والسماسرة . اما الياس نخلة نيبدأ عملية رشوة رجال الجمارك . وينصرف منصور عبد السلام الى اغتيال صورته في المرآة فينتهي في مستشفى المجانين .

ان القطار كمكان للقاء ، هو مكان يؤكد الغربة والخروج من الاطر السائدة . عبد الرحمن منيف، يلتقط من الواقع طرفين لشخصية واحدة . وهو حين يقوم بتوحيدهما في علاقة الاشجار بمرزوق ، فانه عمليا يدين الواقع الذي نحياه . ويترك لنفسه ـ عبر حرية اختياره للاحداث ولربطها ببعضها ـ مجالا واسعا للحركة ضمن اطار العلاقة بالغرب ، وانعكاس هذه العلاقة داخل مجتمع مهدد بسلطة قمعية لا حدود لها ، تنمو في ظل هيمنة الهزيمة ، على أغلبية مفاصل الحياة في المجتمع العربي .

منصور عبد السلام والياس نخلة هما شخص واحد ، او آلاف من الرجال المسحوقين تحت وطأة القمع ، « جيلنا لم يعط نفسه حتى فرحة الخيال . ان يتخيل ببناء مدن سعيدة . بهدم هذا العالم المتوحش الكئيب . هذه المتع الصغيرة التي يحسها أي حشاش ، لم ينعم بها هؤلاء الصغار » . ويلخص منصور تجربته في مذكراته « مرزوق ليس واحدا ، مرزوق كل الناس ، مرزوق شجرة ، مرزوق ينبوع ، مرزوق هو الياس نخلة الذي لا يموت » .

هذه الرواية ، هي علامة هامة في تطور الرواية العربية . فتشكيلها الكلاسيكي ، المليء بالحوار البسيط والمباشر ، استطاع ان يحتال على المضمون الشديد التعقيد . انها بلجوئها الى الحوار الواقعي تتغلغل في مشاعرنا ، وتعطينا احساسا حادا بواقعيتها ، رغم انها ليست رواية واقعية